

ظاهرة التصوف في المجتمع الجزائري - مقارنة سوسيو تاريخية

قايو أمينة - باحثة دكتورالية بجامعة معسكر - الجزائر

تعد ظاهرة التصوف من الموضوعات التي تمت مناوئتها عبر مداخل معرفية متعددة ومختلفة بمختلف الاختصاصات، إلا أن التصوف لازال يحفل براهنية في النقاش الأكاديمي وغيره، ولم تخرج الساحة الفكرية بالجزائر عن هذا الإطار، فالعديد من الدراسات التي تناولت بالبحث هذا الموضوع حاولت التأسيس لتقصي وطرح عتبات مختلفة من حيث زوايا النظر للمسألة الصوفية بالجزائر، وامتدادها في المجتمع والتفاعلات التي تتم على خلفية ذلك، ولذلك فإنه قد يبدو أن أمر التصوف محسوم في التأصيل له نشأة وتطور وسواء كان التصوف ذو أصول شرقية ويونانية وغنوصية، كما يرى الشيخ الميللي في كتابه: تاريخ الجزائر في القدم والحديث^(*) أو كان متأصلا في البيئة العربية الإسلامية وخاصة الفترة النبوية الأولى، كما رد عليه الشيخ العلاوي المستغاني، في كتابه: أعذب المناهل في الأجوبة والرسائل^(**)، فإن الحديث عنه (التصوف) لا يخلو من متعة بفضل مساحاته الرمزية التي لا تزال قابلة للدراسات والمقاربات.

ولقد كان التصوف في الجزائر، كما في البلاد الإسلامية، ولبد ظروف تاريخية وسياسية وثقافية واقتصادية، ساهمت في نحت ملامحه، وتطوير أنساقه وقيام مؤسساته. حيث يرجح أغلب المؤرخين، إلى أن التصوف الجزائري عرف توسع في عهد الدولتين المرابطية والموحدية، بعد أن وفد من المشرق، في حركة تاريخية، بدأت بمستويات فردية، ثم تطورت تدريجيا نحو المؤسسة.

1- ظاهرة التصوف من الفردية إلى المؤسساتية

فالتصوف كحركة دينية، ومظهر من مظاهر الإسلام، ظهر في القرن الثاني الهجري، وانتشر نتيجة عدة معطيات وتغيرات مست المجتمعات الإسلامية، فكانت بدايته كنزعة فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة، ورد فعل مضاد على الانغماس في الترف، والإقبال على الدنيا وملذاتها، يرجعه بعض الباحثين إلى فكرة الحساب والعقاب التي توعد الله بها كل من حاد عن الطريق المستقيم، لذلك كان أسلوب الدعوة الإسلامية في الأول مركزا على عذاب الآخرة، وعندما انتشرت الدعوة، اندفع العرب بحماسة إلى الفتوحات الإسلامية، وكانت نتيجته هذا: اتساع رقعة الدولة وامتلاء الخزينة المالية، والتأثر بالثقافات الأخرى، مما أدى إلى ظهور الكثير من العادات الغريبة عن الإسلام، مثل الجوارى ومجالس الخمر وأماكن اللهو، مما أدى بالمسلمين تدريجيا إلى التخلي عن كثير من أمور الدين، مع طغيان النزعة الفردية.⁽¹⁾

وترتب على هذا الوضع، ظهور فوارق طبقية وتفشي آفة الفقر. فظاهرة الزهد في هذه الفترة، جاءت احتضانا للفئات الاجتماعية المقهورة، التي جاء الإسلام لإنصافها [فالتصوف كان بمثابة ثورة نفسية تجاه الفساد الاجتماعي]⁽²⁾ على هذا الأساس، كان للظروف الاجتماعية الدور المهم في بروز حركة التصوف التي كانت بدايتها ممارسة زهدية، حيث كان للواقع السوسيو سياسي دور في تردي الأوضاع المشحونة بالصراع الدموي، بسبب آلية القمع السلطوي "الأموي"، فتلك الاضطرابات السياسية وما نتج عنها من الحروب وفتن داخلية، كان لها تأثير كبير في إقبال الناس على الزهد واعتزال الدنيا.

إضافة إلى هذه ظروف التي ساهمت في بروز حركة التصوف، هناك من يرى أن أصوله الأولى نبعت من النزعة الروحانية للإسلام، حيث يقول هنري كروبان: "التصوف بإعتباره الشاهد لدين الصوفي في الإسلام، هو ظاهرة روحانية لا تقدر، فهو أولا وقبل كل شيء إثمار لرسالة النبي الروحانية، وجهد مستمر لعيش أنماط الوحي القرآني عيشا شخصيا عن طريق الاستبطان"⁽³⁾

فالتصوف كظاهرة اجتماعية مرت بعدة مراحل في مسار تطوره، حيث كانت بدايته عبارة عن نزعة فردية وممارسة تعبدية ظهرت نتيجة الظروف السياسية. ومن أبرز الزهاد في هذه المرحلة التي أصبحت تعرف بالتصوف السلوكي: إبراهيم ابن الأدهم، ورابعة العدوية التي اشتهرت "بالحب الإلهي"، كما عرف التصوف أكثر نضجا في جوانبه التنظيمية مع الجنيد وذو النون المصري⁽⁴⁾.

ثم اتجه إلى مرحلة أخرى تعرف بالتصوف الفلسفي "النخبوي"، وذلك نتيجة التأثير بالواقع السوسيو ثقافي. وما ميز هذه المرحلة، ظهور فكرة الوصول إلى معرفة الله التي لا تتم إلا عن طريق المباشرة والمشاهدة، حيث عُرف الحلاج بفكرة الحلول، وابن العربي بوحدة الوجود، والغزالي بالكشف⁽⁵⁾.

ثم ما لبث التصوف أن تحول إلى ظاهرة اجتماعية "طرقية"، عرف كمنظمة دينية تضم كل منها شيخ وطائفة من الأتباع.

لقد اكتسبت الطرق الصوفية طابعا اجتماعيا تضامنيا وبعدا إنسانيا، فجمعت بين مختلف الفئات العمرية والشرائح الاجتماعية، وتبنت قيم التضامن والتسامح، وانتشرت في جميع أنحاء العالم الاسلامي، وأبرزها: الطريقة الشاذلية، والطريقة القادرية، والطريقة السهروردية، والطريقة الخلواتية، والبدوية وغيرها.

وفي القرن السادس الهجري، انتقل التصوف من المشرق الاسلامي إلى بلدان المغرب العربي والأندلس، وانتقلت معه حياة الزهد وازدهرت فيها الرباطات والزوايا.

وأبرز أقطاب التصوف المغربي هو أبو مدين شعيب^(*)، ودور هذا الأخير في تفعيل حركة التصوف في الجزائر وخارجها، معروف لدى الدارسين^(**).

2-عوامل انتشار ظاهرة التصوف في الجزائر

التصوف المغربي هو صور حية ناطقة للتصوف الإسلامي المشرقي، وذلك راجع الى ما تركته نظريات التصوف المشرقي من آثار عميقة في الفكر الصوفي المغربي .

وتاريخ الحركة الصوفية لا يشتمل على الجانب الثقافي والروحي فحسب، بل يتجاوزها إلى الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي . أي أن حركة التصوف بالمغرب العربي، والمغرب الأوسط بصفة خاصة، هي ظاهرة بنوية، ظهرت نتيجة إرهابات دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية، تعود جذورها إلى القرن 3هـ / 9م، تخمرت عبر قرون من التراكمات، وتمخض عنها ميلاد حركة صوفية، بدأت معالمها تظهر في القرن 6هـ / 12م، علما وأن أسباب ظهورها تختلف باختلاف الآراء والفرضيات، خاصة لدى الباحثين الأوربيين والمستشرقين. وعموما، لا يمكن اختزالها ضمن تراتبية الأحداث التي ساهمت في تاريخ المغرب العربي، وفي تطوراتها الضمنية.

وكمقدمة سوسيولوجية للموضوع، يمكننا التأكيد على عدة عوامل، ساعدت في ظهور التصوف وانتشاره، منها ما هو محلي داخلي، ومنها ما هو خارجي. وأهمها:

2-1-العوامل السوسيوسياسية

إن ظاهرة التصوف ظاهرة اجتماعية ذات بعد سياسي، إذ من الثابت عموما أن التصوف يترسخ ويشند عوده إبان الأزمات، حينما يدب الضعف والوهن في كيان الدولة المركزية⁽⁶⁾. وإذ كان للأزمة دور في ظهور التصوف المغربي، وهي مسألة لا يرقى إليها شك، فإن البحث يوجب علينا التأكيد على هذه المسألة، من خلال دور النظامين المرابطي والموحدي في تشكل التيار الصوفي في الجزائر، وبروزه كسلوك اجتماعي.

إن ظروفًا عديدة وأكبت الدولة المرابطة^(*) وساهمت إلى حد ما في تعميق التيار الصوفي. فعلى الصعيد السياسي، مارست الدولة مبدأ احتكار السلطة في يد عناصر الحكم والفقهاء المالكين، وهمشت كافة القوى الاجتماعية الأخرى، مما أدى إلى ظهور هوة سحيقة بين المجتمع والسلطة، وترتب على هذا الوضع بروز مظاهر الترف والاستمتاع عند حكام المرابطين والفقهاء، وتراجع القيم الدينية والأخلاقية. شكلت هذه الانحرافات انتقادا من طرف أهل التصوف، وكمثال على ذلك ما حذر منه الطرطوشي الحاكم يوسف بن تاشفين، ما سوف يقع للفقهاء الذين يجب أن يكونوا قدوة للدين⁽⁷⁾.

ودخل المجتمع المرابطي في أزمة، أدت إلى تدهور العلاقات بين الصوفية والمرابطين، خاصة عندما استعانت الدولة بالفقهاء لمحاربة المتصوفة، حيث تردت الأوضاع السياسية والاجتماعية، وانهار اقتصاد الدولة وضعفت سياستها، نتيجة التخوف من المتصوفة، لما لهم من قوة شعبية ومكانة في المجتمع، مما دفع بالحكام المرابطين إلى إتباع سياسة التهميش لرجال الصوفية، ونعتهم بالجمود والتخلف⁽⁸⁾.

نستنتج من خلال هذا العرض أن سياسة المرابطين لم تتمكن من احتواء التصوف واستثماره لنظام الدولة، بل انتهجت سياسة الصدام والتهميش، التي نتج عنها ظهور المتصوفة كقوى تعمل على إعادة التوازن في المجتمع.

أما الدولة الموحدية^(*)، فقد استفادت من هذه السياسة العقيمة التي امتازت بها الدولة المرابطية، وذلك راجع إلى ثقافتهم القريبة من الفكر الصوفي، لما عرف عنهم من زهد وورع، فكان الحكام الموحدون أكثر رغبة في اقتفاء المعرفة الصوفية، فتشكلت علاقة حميمة بينهم

وبين المتصوفة، وإن كان الظاهر يوحي أن هؤلاء الحكام أحبوا الصوفية من خلال إتباعهم سياسة الاحتواء، والهدف منها التقرب من الصوفية، لأنهم كانوا على علم بمكانة المتصوفة في المخيال الشعبي ودورهم في تعبئة المجتمع لصالحهم. رغم أن العلاقة بين الطرفين توترت فيما بعد، إلا أن المتصوفة لم يعلنوا العصيان في وجه السلطة وذلك مخافة من الفتنة، أما السلطة الموحدية فتجنبت الصراع لما كان للصوفية من نفوذ في المجتمع.

وفي الأخير نقول أن كلا من الحكّمين المرابطي والموحدي، شكلا انطلاقة حقيقة لظهور التصوف في المغرب الإسلامي وانتشاره، لكن مع سقوط الدولة الموحدية وتفككها إلى دويلات ثلاث: الدولة الحفصية في تونس، والدولة الزيانية في المغرب الأوسط، والدولة المرينية في المغرب الأقصى، لم تقتنع أي دولة بالمناطق التي تأسست عليها، بل سعت كل واحدة منها إلى التوسع مدعية الوراثة الشرعية لتركبة الدولة الموحدية التي تمتد من تونس إلى المغرب الأقصى.

بقي الصراع قائما بين الدويلات الثلاث، وترتب عن هذا الوضع السياسي انعدام الأمن بسبب الوضع المشحون بالصراع الدموي نتيجة الحروب، والتكالب المستمر على السلطة، نتج عنه دخول المجتمع المغربي في أزمة، هي في الحقيقة أزمة قيم رغم مظاهرها السياسية، ترتب عنها تفكك وحدة المجتمع وضعف الدولة المركزية. وبالإضافة إلى الخطر الخارجي الذي كان يهدد السواحل المغربية، ظهر المتصوفة ليدافعوا عن، الثغور الإسلامية، حيث مال قطاع واسع من شرائح المجتمع إلى حياة الزهد والعزلة والتفوق حول رجال التصوف قصد التماس البركة، راجين منهم دفع البلاء عن البلاد وحل مشاكلهم، ففي هذه المرحلة التاريخية، ظهر الولي كشخصية مقدسة في المخيال الشعبي، وذلك راجع إلى دوره الفعال في المجتمع.

وفي هذه الفترة، لم تكن العزلة مقتصرة على عامة الناس، بل مست كذلك النخبة، ومن بينهم: العلامة عبد الرحمن بن خلدون، الذي يقول عن سبب عزله: "أقمت تلك الليلة في اعتقال، ثم أطلقني من الغد، فعمدت إلى رباط الشيخ الولي أبي مدين ونزلت بجواره، مؤثرا التخلي والانقطاع للعلم، لو تركت له"⁽⁹⁾. وهكذا يتضح أن عزلة ابن خلدون، كان لها بعد سياسي، يكشف عن الاضطرابات السياسية في تلك الفترة.

من خلال كل ذلك، نقول أن الظروف السياسية التي مرت بها المجتمعات المغربية، لها دور فعال في ظهور ظاهرة التصوف في الجزائر، كظاهرة اجتماعية، تُبرز لنا علاقة المتصوف بمجتمعه ودوره في إعادة خلق التوازن.

2-2-العوامل السوسيواقتصادية

الجانب السوسيواقتصادي له الدور الفعال في بروز التصوف، وخاصة لما آل إليه الوضع في المجتمعات المغربية والمجتمع الجزائري "المغرب الأوسط" بصفة خاصة، في الفترة الأخيرة من القرون الوسطى، من الاضطرابات السياسية والحروب الطويلة التي ظلت قائمة بينهم بسبب الصراع على السلطة، ومن مظاهر الأزمة السياسية: انعدام الأمن الاجتماعي الذي كان له تأثير كبير على الوضعية الاقتصادية في المجتمع، من خلال تحطيم البنية التحتية لاقتصاد الدولة المتمثلة في "الحاصيل الزراعية والتجارة والآبار"، نتيجة الحصار على المدن، مثال على ذلك حصار السلطان المريني أبي يعقوب سنة 670هـ لمدينة تلمسان.

بالإضافة إلى ذلك، نشير إلى الضغط الذي كانت تمارسه القبائل على المناطق التلية، وتدميرها مظاهر العمران، مما نتج عنه تراجع مكانة المدن الداخلية، الذي انعكس سلبا على بلاد المغرب ودورها كوسيط تجاري بين إفريقيا وأوروبا⁽¹⁰⁾.

هذه الوضعية الاقتصادية كان لها أثر كبير على المستوى المعيشي، تسببت في انتشار المجاعات والأوبئة وارتفاع الأسعار، ترتب عنها تعميق الهوة بين الأقلية التي احتكرت مصادر الرزق من أعيان الدولة، وبين السواد الأعظم من المجتمع الذي ازداد فقرهم.

والغرض من هذا التحليل البنوي للوضعية السوسيواقتصادية للمجتمع الجزائري، هو معرفة كيف تعامل الإنسان المغربي أمام هذه الوضعية المتأزمة، فحسب التفكير السائد اعتبرها غضباً من الله ويجب تصحيح الضمير والعودة إلى الله، وهذا ما دفع العامة إلى الالتفاف بالأولياء لاتصافهم بقيم الرحمة والإحسان، لقد قاسموهم مرارة العيش، وشاركوهم في حل مشاكلهم، وذلك من خلال ما عُرف عن الولي من كرامات، حيث يستطيع أن يرفع البلاء، ويشفي المريض، ويتدخل في حل مشكلات اقتصادية، كالجفاف مثلاً: "يضع قدمه فتتفجر بالماء".

يتضح لنا مما سبق أن الموقف الصوفي الذي يوجد في ثنايا الكرامات الصوفية يسعى إلى الخروج من الأزمة التي يعيشها المجتمع، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وهذا ما ذهب إليه الباحث إبراهيم القادري بوتشيش⁽¹¹⁾. ونستنتج مما سبق ذكره أن الممارسة الصوفية أثناء تشكيلها، كان لها بعد اقتصادي واجتماعي، أفرزته الأزمة السياسية التي كان يعيشها المجتمع آنذاك.

3- المرجعية الفكرية والثقافية لظاهرة التصوف الجزائري:

لا يمكن أن نتكلم عن الوضعية الفكرية والثقافية التي ساهمت في ظهور التيار الصوفي دون أن نتكلم عن الاتصال الفكري بين بلاد المغرب والمشرق من جهة، واتصال المغرب بالأندلس من جهة أخرى.

ظل المشرق العربي يهيمن على الحياة الثقافية والفكرية في بلاد المغرب الإسلامي عهوداً طويلة على اعتباره نواة ومركز الحضارة العربية، إذ تعتبر جل الأفكار السياسية والمذهبية والدينية والفكرية وليدة البنية المشرقية، ومن بينها التيار الصوفي، حسب المؤرخ ألفرد بل.⁽¹²⁾

يظهر التفاعل بين المجتمعين من خلال أداء مناسك الحج، وطلاب العلم، والحركة التجارية، فهذه العوامل ساهمت في تعرفهم على ظاهرة التصوف المشرقية فتأثروا بها، وأدى هذا، عند عودتهم، إلى استنساخ التجربة الصوفية في بيئتهم المحلية.

أما الوسيلة الثانية هي: تأثرهم بكتب التصوف المشرقية، التي كانت متداولة، ومن بينها كتاب: "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي، و"الرعاية" للمحاسبي و"الرسالة القشيرية" للقشيري، وأهمها تأثيرا في التيار الصوفي في بلاد المغرب، هي كتب الغزالي، وخاصة الذي سبق ذكره، وذلك لما عُرف عن الغزالي أنه صوف الإسلام من خلال محاولته التوفيقية بين الشريعة والحقيقة، وعلى هذا الأساس، تعتبر كتبه مرجعا للمتصوفة في المغرب الأوسط، وكمثال على ذلك تلقيب أبي الحسن بن علي المسيلي بأبي حامد الغزالي الصغير⁽¹³⁾.

والوسيلة الثالثة التي تبرز في مدى التفاعل بين المشرق والمغرب، هي مشاركة المشاركة في سلسلة السند التي ترجع إلى رسول الله، وهذا يدل على المرجعية المشرقية للتصوف المغربي.

أما بخصوص اتصال المغرب بالأندلس، فقد كان العامل الأساسي في بروز التيار الصوفي في المغرب الأوسط، حيث شكلت الأندلس بؤرة تفاعل رغم انفصالها السياسي، إلا أن العلاقات الحضارية والفكرية ظلت مستمرة وخاصة في مجال التصوف، حيث يظهر التأثير من خلال عدة جوانب.

1- اعتبرت الأندلس دار حرب بسبب صراعها مع النصارى، وكان للمغاربة الدور القوي في تدعيم الأندلس، ومساندتها لمواصلة الفتح الإسلامي، وهذا ما أدى إلى هجرة الكثير من المغاربة إلى الأندلس، واستمرت بتزايد خاصة بعد الاضطرابات السياسية، وضعف الدولة المركزية نتيجة الحروب الاستردادية التي نتج عنها ظهور المتصوفة للمرابطة وضرورة الدفاع عن الثغور الإسلامية⁽¹⁴⁾.

2- هجرة علماء الأندلس إلى بلاد المغرب الأوسط بعد سقوط الأندلس، حيث رصد ناصر الدين سعيدوني خمسين عالما أندلسيا استقر بصفة نهائية في مدينة بجاية لوحدها، وخاصة في القرنين السادس والسابع هجري⁽¹⁵⁾، هذا يؤكد دور المتصوفة الأندلسيين في نشر التصوف في الجزائر وخاصة مدينة بجاية، وأبرز المتصوفة أبو مدين شعيب ت 594هـ الذي أستقر في هذه المدينة، أين تعززت مكانته في المجتمع الجزائري، وأضحى مقصدا للطلبة والمريدين، وذلك راجع لمكانته العلمية، فهو قبل أن يكون صوفيا، كان عالما وفقهيا في الدين، بالإضافة إلى ميله إلى لنزعة السلوكية بعيدا عن تعقيدات التصوف الفلسفي، مركزا على الطقوس الدينية التي تحمل قيما أخلاقية، كالصبر والتواضع، والزهد، والثقة بالامحدودة في الله.⁽¹⁶⁾ وعلى هذا الأساس لقي التصوف تفاعلا مع المجتمع الجزائري.

كما يظهر أثر ضريح الولي أبو مدين شعيب في انتشار التصوف، لأنه يعتبر رمزا ومحجا من طرف مختلف شرائح المجتمع حتى من طرف الحكام. كما لا يمكن إنكار وجود أعلام تصوف جزائريين، عملوا على نشر هذه الطريقة بكامل البلاد، ومن بينهم عبد الرحمن الثعالبي^(*) ويوسف ملياني^(**).

ومحمد الهواري⁽¹⁷⁾ وأبو زكرياء الزواوي⁽¹⁸⁾ وغيرهم من رجالات الجزائر، الذين ساهموا في نشر التصوف في الجزائر⁽¹⁹⁾.

4- مراحل تطور ظاهرة التصوف في الجزائر

مر التصوف في الجزائر بمرحلتين أساسيتين أولها المرحلة النخبوية المدنية، ثم المرحلة الطرقية الشعبية الريفية.

ففي القرنين السادس والسابع للهجرة، كان التصوف النخبوي يتميز بالمدارس الخاصة، مقتصرًا على طبقة معينة من المثقفين وعدم انتشاره بين الطبقات الشعبية. حيث تعتمد هذه النخبة على الجانب النظري من الفكر الصوفي الذي يتطلب مستوى معينًا من الثقافة، والدراية الكافية بأحكام الشريعة الإسلامية، وقبل أن ينتشر التصوف إلى مختلف الطبقات وشرائح المجتمع، كانت المناقشات العلمية والفكرية تدور بين العلماء والفقهاء فقط.⁽²⁰⁾

لقد انتشر التصوف في بداية الأمر في المدن والحواضر الكبرى قبل انتشاره في الأرياف، ويعود السبب إلى أن معظم المتصوفة ظهوروا في المدن مثل: "بجاية، تلمسان، وهران" وغيرها، التي كانت مراكز للفكر والثقافة، ولهذا السبب سمي التصوف النخبوي بالتصوف المدني، أي نسبة إلى ظهوره في المدن، فالمتصوفة الكبار أمثال: "أبو الحسن الشاذلي"⁽²¹⁾ عاش في تونس، ثم في القاهرة، كانت الأولى عاصمة للحفصيين، والثانية للأيوبيين، وكان: "أبو مدين شعيب" أندلسيًا، ثم بجائيا، ومات تلمسانيا، كذلك "عبد الرحمن الثعالبي" تلقى علمه في بجاية، ثم في تونس، واستقر في الجزائر العاصمة⁽²²⁾، وهذا ما يجعلنا نقول أن التصوف نشأ في المدن واقتصر على النخبة من المثقفين.

ومن بين المدارس الصوفية في الجزائر:

- 1- مدرسة قسنطينة: بزعامه الشيخ "أبي الحسن علي بن باديس" (701-787هـ) خلال القرن الثامن للهجرة، الرابع عشر للميلاد. وهو صاحب المنظومة السينية التي تعرف كذلك بالنفحات القدسية التي نظمها في مدح الشيخ: "عبد القادر الجيلاني"⁽²³⁾.
 - 2- مدرسة الجزائر: بزعامه الشيخ عبد الرحمن الثعالبي (786-875هـ) الذي له عدة منظومات صوفية للقرآن الكريم.
 - 3- مدرسة تلمسان: بزعامه الشيخ: "محمد بن يوسف بن شعيب السنونسي"⁽²⁴⁾ المتوفي عام 985هـ/1493م.
 - 4- مدرسة وهران: بزعامه الشيخ: "محمد بن عمر الهواري" المتوفي عام 843هـ/1439م وتلميذه: "إبراهيم اللتي" صاحب المنظومة المرادية، المتوفي عام 866هـ/1462م.
 - 5- مدرسة مازونة: بزعامه الشيخ: "محمد بن علي أهلول المجاجي"، المتوفي عام 1002هـ/1593م⁽²⁵⁾.
 - 6- مدرسة بجاية: وهي من أهم المدارس التي كان لها دور كبير في نشر حركة التصوف بزعامه الشيخ: "ابن إدريس"، المتوفي عام 760هـ/1359م وتلميذه من بعده: "عبد الرحمن الوغليسي" صاحب المنظومة الوغليسية في الفقه.
- ولقد أشار: "أبو العباس الغبريني" في كتابه: "عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" إلى نشاط حركة الصوفية في بجاية، وخاصة فيما يتعلق بالأدب والشعر الصوفي، ومن الأسماء اللامعة في هذا المجال: ابن النحو في العصر الحمادي، وأبو زكريا الزواوي، وغيرهم في العصر الموحد، وأبو محمد بن ربيع الأنصاري البجائي المتوفي 675هـ⁽²⁶⁾.
- كما يشير "الغبريني" في كتابه أيضا، أن: "أبو الحسن علي بن أحمد الحارلي التجيني، المتوفي عام 638هـ، أكبر فيلسوف صوفي، إذ ترك أثارا كبيرة في مدينتي بجاية والجزائر، وكذلك "أبو زكريا القرني السطيفي" المتوفي 677هـ⁽²⁷⁾.

ونستخلص من هذا الكتاب، أن بجاية واحدة من المدن التي شهدت حراكا ونشاطا فكريا وصوفيا كبيرين، كان لهما أثر في نشر التصوف في الجزائر، وأن الكثير من المدن في الجزائر عرفت بأسماء بعض أعلام التصوف، كمدنية الجزائر بـ"عبد الرحمن الثعالبي" وهران بـ"سليدي الهواري" وتلمسان بـ"سليدي بومدين" وقسنطينة بـ"سليدي راشد"، وهذا يدل على مكانة التصوف في بنية الثقافة للمجتمع الجزائري.

أما في المرحلة الثانية، فقد انتقل التصوف، من المدينة المقتصر على النخبة، إلى الريف المتجه إلى العامة، وذلك نتيجة الظروف الداخلية التي مرت بها المجتمعات المغاربية، والجزائر بصفة خاصة، نظرا لتفشي الأزمة بكل أبعادها السياسية، والاقتصادية، والأخلاقية، كما أسلفنا ذكرها، بالإضافة إلى الظروف الخارجية، المتمثل في تزايد الخطر الخارجي على السواحل المغاربية، بسبب الحروب الاستردادية، وترتب على هذا الوضع، ظهور وانتشار الفساد الأخلاقي والسياسي على السواء، بالإضافة إلى الظلم الاجتماعي. مما اضطر المتصوفة إلى مساندة المجتمع، والنزول إلى عامة الناس، وتبسيط التعاليم الدينية، لكي تكون في متناول الجميع، وغير مقتصرة على فئة. وفي هذه الفترة، انتشر التصوف كحركة اجتماعية متجهة إلى الأرياف، وخاصة بعدما أصبحت المدن، مثل "بجاية" بؤرة تهديد، من قبل الهجمات الإسبانية، وهذا يعتبر من

العوامل التي ساعدت على انتشاره في أوساط العامة، حيث توجهت أنظار العامة إلى المرابطين "رجال التصوف" يلتمسون النجاة على أيديهم، اعتقاداً منهم أن "أولياء الله" يتصرفون في الكون بقدرتهم الروحية، ويعلمون الغيب، وأن الله هو الذي يحارب عنهم كل من حاربهم، فظفروا باحترام عامة الناس، وأدى ذلك إلى رفع مكانتهم، وازدياد نفوذ سلطاتهم، وخاصة عندما تبنى المتصوفة مطالب المجتمع في مواجهة السلطة، فتموقعوا في نفس الخندق يواجهون الظلم والتعسف.

وفي هذه الفترة 9هـ تقريباً، ظهر ما يعرف بالحبوس أو الوقف⁽²⁸⁾ وهو أحد مظاهر الحركة الصوفية، الذي يتمثل في تبرعات وهدايا المحبين التي تقدم للولي الصوفي التي يتقاسمها مع أتباعه، هذا ما أضفى عليه هالة قدسية، نتيجة انبهار العامة بقدراته الخارقة على كشف أسرار الناس، وإطلاعه على أمور مستقبلهم، وإنقاذ المجتمع من الأزمات، وعلى هذا الأساس أصبح تعظيم الأولياء سلوكاً اجتماعياً تؤمن به كل شرائح المجتمع، الذي تزامن مع ظهور الكرامات، وهذا ما أثبت القول: "أن الفكر الكرامي ينشط إبان الأزمات، وظف من قبل التيار الصوفي كأداة للنقد والدعوة لإصلاح المجتمع وإعادة بناءه"⁽²⁹⁾، مما يستدعي إعادة قراءة فحوى الكرامة، ليست كقصة خرافية لا معنى لها، تعبر عن سذاجة الفكر وانحرافه، بل يجب قراءتها "قراءة بنوية تفيكيكية" من خلال إرجاعها إلى سياقها التاريخي والاجتماعي لمعرفة رسالتها. وفي هذه المرحلة بدأت تتشكل تنظيمات دينية، تعرف باسم "الطرق الصوفية" التي يلقي فيها الشيخ الصوفي أتباعه: "الأوراد والأذكار البسيطة والأدعية وممارسة طقوس الحضرة"، وغيرها من ممارسات التصوف، كما ظهرت في هذه المرحلة فكرة التوكل على الله⁽³⁰⁾ والتي تعني الثقة الكاملة بالله، والرضا التام بالقدر، والصبر في الشدة، التي ترتب عنها إلغاء الحرية والاختيار، فانتشرت هذه الفكرة في جميع الأوساط المتعلمة منها والجاهلة⁽³¹⁾.

وفي الأخير، يمكن القول، أن التصوف لم يحقق نجاحه فقط على مستوى الأوساط البسيطة والفقيرة والجاهلة، بل حقق انتصاره على جميع المستويات من الفقهاء والمتكلمين، وهذا ما ميز الإسلام في شمال إفريقيا، وأعطاه شكلاً وبعداً آخر، وهو ما يسميه ألفرد بل بـ"الإسلام الطرقي"⁽³²⁾.

الهوامش:

* يرى الشيخ مبارك الميلي أن لفظة التصوف دخلت إلى العالم الإسلامي زمن المأمون العباسي، مع الترجمة من اليونانية والهندية.

** رد الشيخ أحمد بن مصطفى العلوي، في كتابه: أعذب المناهل في الأجوبة والرسائل، على الشيخ مبارك الميلي، فقال:

«والشاهد، أن لفظة التصوف كان معروفاً من قبل خلافة المأمون، وأن أهله كان لهم وجود، وكانت لهم مكانة في نظر الأمراء، وبهذا النقل وغيره، يسقط ما ادعيتموه يا حضرة الميلي من كون لفظة التصوف ما عرفت إلا بعد ترجمة اليونان، وهذا ما التزمنا بايضاحه لكم....».

1. محمد راشد، نظرية الحب والاتحاد في التصوف الاسلامي، "الحب الالهي إلى دومة الاتحاد والمستحيلات"، دار الأوتل، لبنان، ط1، 2003، ص ص 30-31.
2. منال عبد المعيم، التصوف في مصر والمغرب، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1، 1990، ص72.
3. سليمان سليم، التصوف الاسلامي، تاريخ العقائد، "طرق، أعلام"، دار النوفل، بيروت، ط1، 1999، ص71.
4. المرجع نفسه، ص305.
5. أحمد توفيق عماد، التصوف الاسلامي "تاريخه ومدارسه، وطبيعته وأثاره"، مكتبة انجلو مصرية، ط1، 1970، ص26.

* أبو مدين شعب بن الحسين الأنصاري والمعروف باسم سيدي بومدين أو أبو مدين التلمساني ويلقب بشيخ الشيوخ ولقبه ابن عربي معلم المعلمين (509هـ 1126 في قفطانية، 594هـ 1198 في تلمسان) فقيه ومتصوف وشاعر أندلسي، يعد مؤسس أحد أهم مدارس التصوف في بلاد المغرب العربي والأندلس، تعلم في إشبيلية وفاس وقضى أغلب حياته في بناية وكثر أتباعه هناك واشتهر أمره، فوشى به البعض عند يعقوب المنصور الموحدي بمراكش، فبعث إليه الخليفة للقيده عليه لينظر في مزاعم حول خطورته على الدولة الموحدية، وفي طريقه مرض وتوفي نواحي تلمسان، وبني سلاطين بني مرين بضرعته مسجداً ومدرسة. ولأبي مدين شعب مؤلفات كثيرة في التصوف، وديوان في الشعر الصوفي وكذلك تصانيف من بينها "أنس الوحيد ونزعة المريد في التوحيد". انظر الى كتاب انس الفقير وعز

الحقير لابن قنفذ القسماطيني

*** عرف عبر التاريخ الإسلامي وفي كتب التراث والتاريخ الإسلامي، ككتاب ابن قنفذ ودائرة المعارف الإسلامية وشذرات الذهب للامام الشعراني وفي كتاب الإمام الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث وفي العديد من المراجع الإسلامية، ويقال إنه خرج على يده ألف تلميذ وجميعهم من العلماء، ولذلك يقال له: شيخ مشايخ الإسلام، وإمام العباد والزهاد، وقد كان له الفضل في نشر الإسلام في بلدان غرب إفريقيا والطريقة المدينية انبثقت عنها الطريقة الشاذلية والعديد من المذاهب الصوفية. وقد ذكر المستشرق سبنسر ترمينهام في كتابه: الطرق الصوفية في الإسلام، أن طريقة أبي مدين استمرت من خلال تلميذه عبد السلام بن مشيش المتوفي عام 625هـ 1228م وأبو سعيد الباجي، والشيخ عبد السلام بن مشيش من أعظم تلاميذه البارزين هو وأبو الحسن الشاذلي الذي أسس الطريقة الشاذلية والتي انتشرت في شمال إفريقيا من المغرب العربي إلى مصر، كما كان لها أتباع في سوريا وبلاد العرب كافة. لذلك فإن الشيخ أبو مدين الغوث شعب ابن الحسين يعتبر قطب الاطباب. من

6. إبراهيم القادييري بوتشيش، المغرب والاندلس في عصر المرابطين "الجمتمع،الذهنيات ،الاولياء"، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الاندلسية، المغرب، ط2، 2004، ص125.

بالمرابطين هي حركة دعوية إصلاحية إسلامية، أسست أول دولة في منطقة المغرب الإسلامي بكامل المعنى، فقد كان المغرب الإسلامي قبل ظهور هذه الحركة مجرد إمارات صغيرة ومبعثرة مبنية على أساس قبلي. اعتمدت الدولة في نشاطها على دعوة الشيخ عبد الله بن ياسين وقوة قبائل صنحاجة، وخاصة قبيلتا ثلثة وجدالة. في تأسست الدولة على منهج إسلامي سني مالكي قويم. وكان لدولة المرابطين دور كبير في نشر الإسلام في منطقة غرب إفريقيا، وفي مد عمر الأندلس أربعة قرون آخر، حيث كسر المرابطون شوكة النصارى في معركة الزلاقة الشهيرة بقيادة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وقضوا بعد ذلك على حكم ملوك الطوائف، وضموا الأندلس إلى دولتهم، وقد استمرت دولة المرابطين قرابة مئة عام منذ سنة 448 هـ - 1056 م إلى سنة 540 هـ - 1145 م.

7. بوداود عبيد، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط، "ما بين القرنين السابع و التاسع هجري، و "13-15م" دار الغرب الجزائر، ط1، 2003، ص53.

8. طاهر بونابي ، التصوف في الجزائر خلال القرنين ، "6-7هـ"، 12-13م"، "نشأته تياراته، دوره الفكري والاجتماعي و السياسي"، دار الهدى، الجزائر ، د.ط، 2004، ص 197.

* الدولة الموحدية إمبراطورية إسلامية أسسها الموحدون وهم من سلالة أمازيغية حكمت بلاد المغرب (المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا) والأندلس سنوات 1121م-1269م - م أسسها أتباع حركة محمد بن تومرت. من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

9. بوداود عبيد ، المرجع السابق ، ص ص 171-174، بتصرف

10. المرجع نفسه ، ص ص 178-181 ، بتصرف .

11. إبراهيم القادري بوتشيش ، المرجع السابق ، ص ،144.

12. ألفرد بال، الفرق الإسلامية في شمال إفريقيا من الفتح العربي حتى اليوم ،تر، عبد الرحمان بدوي ،دار الغرب الاسلامي لبنان ، 1987 ، ص 379.

13. بوداود عبيد المرجع السابق ، ص 40-41.

14. المرجع نفسه، ص 45.

15. ناصر الدين السعيدوني، صور من الهجرة الاندلسية إلى الجزائر ، مجلة العربية للثقافية ، العدد 27 ، سبتمبر 1994، ص 227.

16. بوداود عبيد ، المرجع السابق ، ص ص 198-202 بتصرف.

*عبد الرحمن الثعالبي (786هـ/1384م) (هو مفكر ورجل دين جزائري من منطقة القبائل في الجزائر، بشمال إفريقيا يعتبره الجزائريون شيخا ووليا صالحا وعلامة كبير، بنيت له في منطقته زاوية كبيرة لنشر العلم و الدين.

** وُلد الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي الملباني سنة 840هـ - 1437م، وقبل سنة 836هـ، في دامود أحد قصور توات، ومنه جاءت نسبته الدامودي . كانت بداية أمره في مساجد ”رأس الماء“ حيث انتقل صغيراً من مسقط رأسه ”دامود“، كما أخذ عن علماء تلمسان وبهران، ثم انتقل إلى مجاية حيث تلمذ على الشيخ أحمد زروق، وأخذ عنه عهد الطريقة الشاذلية، وسلك على يديه. تذكر بعض المصادر أنه ساه في الأرض لمدة تزيد عن 15 سنة بفلس وتلمسان وتاهرت وفصيح، ثم انتقل إلى الزاب وبلاد الجريد والقيروان وطرابلس والإسكندرية والقاهرة وحدة، وحج وأقام بمكة، ومنها انتقل إلى المدينة المنورة حيث أقام هناك سنة كاملة. وبعد هذه الرحلة العلمية والتوجيه عاد إلى بلاده ينشر العلم والطريقة معاً، فأشس زاويته بـ”رأس الماء“ بوادي الشلف، دُرِس بها مختلف العلوم الشرعية، وكون فيها المريدين، وسرعان ما عرف شهرة واسعة في المنطقة والمناطق المحاورة، وعرفت طريقته ”اليوسيفية“ شهرةً وصحوةً كبيرتين، في مختلف أرجاء المغرب الإسلامي، وعمّ نفوذه الصحراء الجزائرية والمغرب الأقصى، وكون عدد من أتباعه جماعة تسمى بـ”الشاذفة“ أو ”اليوسيفية“، وقد اغرقوا عن الدُّين فعاب عليه الفقهاء إلا أنَّ الملباني تَرَأَّى منهم وقاومهم. توفي الشيخ بالقرب من مدينة مليانة في سنة 931هـ-1524م، ودُفِنه ابنه محمد في مرزوقة في مدينة مليانة، وبني له باني وهران“ محمد الكبير“ ضريحاً ومسجداً في القرن الثاني عشر الهجري..

17. الشيخ الولي الصالح والنور الواضح سيدي محمد فتحا الحواري للمكي الإمام الحواري بمدينة وهران بالقطر الجزائري للثوقي سنة 843 هجرية، دفن بوهران، تلقى العلم بكل من مصر والجزائر وفلس ومكة والشام بجامع بني أمية، كان يأوي في سياحته إلى الغاية لتعدد فتحلس بمجانيه السباع والوحوش، وعندما قرب أجله كان يكثر في مجالس للتبشير بسعة رحمة الله وغفوه. وقد خلف سيدي محمد فتحا الحواري الأول سيدي زكرياء وخلف هذا الأخير الذي توفي شهيدا بالجزائر سيدي محمد فتحا الحواري الثاني وغادر هذا الأخير وهران في اتجاه المغرب وعرف بكراماته. أخذ الطريقة عن الشيخ سيدي احمد بن يوسف الملباني الذي وقعت له معه أحداث وكرامات عجيبة .

18. الشيخ الفقيه الولي الصالح أبو زكريا يحيى بن أبي علي المشتهر بالزواوي (ت 611هـ)، أسس زاويته خارج مدينة مجاية، باب البحر، بعد عودته من المشرق، وجلس بها لنشر العلم وبثه والدعوة إلى الله، فانتفع الخلق على يديه، وكان يدرس بها أيضا علوم الحديث وعلوم الفقه والتصوف، كما تولى التدريس بها الشيخ الولي الصالح أبي مدين العوث.

19. هناك اتجاه آخر من أرفع أسباب انتشار التصوف في الجزائر أو في شمال إفريقيا راجع إلى أسباب آخر، غير التي أسلفنا ذكرها وسنذكرها من باب تعدد الآراء، وهذا إذ دل إنما يدل على أن التيار الصوفي شكل نقاشا حادا بين الباحثين، ومن بينهم ما ذهب إليه الباحثة لطيفة الأخضر في كتابها "الإسلام الطريقي" ، أن أصول التصوف في شمال إفريقيا حسب الباحثة يعود إلى ثلاث اعتبارات هي:

1- ثأر البرابرة :تقصد به الباحثة، عندما انتشر التصوف بين الفئات الاجتماعية أضعاع التصوف جانببه الفلسفي ليصبح الولي محور الأساسي والزاوية فضاءها الأول، والطقوس وسائل لمعانيتها الدينية، وباعتبار أن هذه الأخيرة لم تقننها النصوص فهناك من يرى عبادة الأولياء في شمال إفريقيا هي تواصل لمعتقدات وثنية كان يعيدها البربر قبل الإسلام.

2- ثأر المرأة :وذلك راجع إلى عدم تردها على المساجد بنفس الدرجة التي عليها الرجل وعلاقتها بمكان المقدس ضعيفة مقارنة مع الرجل، وهذا راجع إلى الهيمنة الذكورية التي جعلت المرأة إلى اليوم مخلوقا محاصرا بعوائق قانونية واجتماعية على حسب تعبير هشام شرابي، وهذا ما أثبتته كذلك دراسة كل من الدكتوراة فاطمة المرنيسي، ونوال السعداوي وغيرهما، أن الوضع السوسيوثقافي الأبوي في مجمله، جعل المرأة عبر الزمن العربي خصوصا في الأقطار المغاربية تبحث عن ذاتها ووجودها في ثنايا الطقوس وزيارة الأضرحة، حيث أصبح من أسلحتها في المقاومة ومجتها عن كينونتها، وهي تحاول إعادة إنتاجه في أولادها عن طريق التنشئة الاجتماعية ، وكرد فعل على هذه الهيمنة أجهت المرأة إلى عبادة الأولياء كفضاء تستمد منه سلطتها الدينية المضادة لهم.

3- ثأر السودان :ترى الباحثة أن الكثير من الطقوس والمظاهر من المعتقدات الشعبية هي مرتبطة بوجود السودان في المجتمع المغاربي، كون إسلام هؤلاء السودان هو مجرد نتيجة سقوطهم في العبودية.

نستنتج من خلال طرح الباحثة لطيفة الأخضر أنها متأثرة برواد الأنثروبولوجيا الانقسامية مثل:"جورج داراك"، "إيميل دامرنهام"، الذين يروا أن التدين في المجتمع المغاربي هو تدين شعبي وخاصة فيما يتعلق بتقديس الأولياء فهو شكل من أشكال التدين البربري الوثني، وفي نهاية المطاف هي محاولة لإثبات مقولة البقايا الوثنية.

فليراجع:

لطيفة الاخضر، الاسلام الطريقي، دار السراسر، تونس، دون ط، 1993، ص 42..

هشام شرابي، النظام الأبوي و اشكالية التخلف في المجتمع العربي ، تر شريح محمود، دار الغرب، وهران، الجزائر ، 2002، ص 72.

20. عبد المنعم قاسمي الحسيني، عن التصوف والصوفية في الجزائر، مجلة ابداعية تصدر عن وزارة الثقافة،الجزائر، 2007، ص 96.

21. أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي المغربي، الزاهد، الصوفي إليه تنتسب الطريقة الشاذلية ، سكن الإسكندرية، ولد571 هـ بقبيلة الأخماس الغمارية، تفقه وتصوف في تونس، وسكن مدينة شاذلة التونسية ونسب إليها، وتوفي الشاذلي بوادي حميثرة بصحراء عيذاب متوجهاً إلى بيت الله الحرام في أوائل ذي القعدة656 هـ.

22. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1، دار الغرب، ط1، 1998، ص 463.

23. عبد القادر الجيلالي أو الجيلاني أو الكيلاني 470 هـ - 561 هـ، هو أبو محمد عبد القادر بن موسى بن عبد الله، يعرف ويلقب في التراث المغاربي بالشيخ بوعلام الجيلاني، وبالمشرق عبد القادر الجيلاني، ويعرف أيضاً بـ"سلطان الأولياء"، وهو إمام صوفي وفقه حنبلي، لقبه أتباعه بـ"باز الله الاشهب" و"تاج العارفين" و"محيي الدين" و"قطب بغداد". وإليه تنتسب الطريقة القادرية الصوفية.
24. الإمام أبو عبد الله السنوسي هو محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي نسبة لقبيلة بالمغرب ويلقب أيضاً بالحسني نسبة للحسن بن علي بن أبي طالب من جهة أم أبيه، وهو تلمساني أيضاً نسبة إلى بلدة تلمسان. وهو عالم تلمسان وصالحها وزاهدتها وكبير علمائها.
- لم يتم تحديد تاريخ ولادته بشكل دقيق إلا إنه من المتفق عليه بين أغلب المؤرخين أنه ولد بعد سنة 830 للهجرة.
25. يحي بوعزيز، الموضوعات و القضايا من تاريخ الجزائر و العرب، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1999، ص 218.
26. أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة بمجاية، تح، رايح بونار، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، د.ط، د.س، ص 46.
27. المرجع نفسه، ص 48.
28. أبو القاسم سعد الله، "أراء وإبحاث في تاريخ الجزائر، دار النشر، عيسات ادير، الجزائر، 2000، ص ص2-50 بتصرف..
29. إبراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص 141.
30. ألفرد بل المرجع السابق، ص 409.
31. التسليم بالقدرية هو كأحد مخلفات الفكر الصوفي التي مازالت إلى يومنا هذا مستمرة المتمثلة في المكتوب ويفسر "مالك بن نبي" هذه الفكرة بما أ صطلح عليه تغليب الزمن الاجتماعي على الزمن المعرفي أي تكريس مبدأ الإنكالية وعدم السعي إلى تحسين الظروف المعيشية والعلمية، والاكتفاء فقط بما هو موجود، كذلك من بين إفرازاته تصور أن الشيخ أو الولي ينحدر من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم، ومنه ظهرت فكرة الشرف.
32. المرجع نفسه، ص 407.